

المحاضرة الرابعة لمادة العراق المعاصر (المرحلة الثانية)

للعام الدراسي 2023-2024

الإدارة البريطانية لمشروعها الاستعماري في العراق

عندما قام البريطانيون باحتلال العراق كان من المقرر في بادئ الأمر جعل العراق الأوسط والجنوبي أي بغداد والبصرة جزء من الهند خاضعا لإدارة مومباي، وسرعان ما عينوا حاكما سياسيا في البصرة وهو الجنرال باريت (Bareet) الذي أخذ على عاتقه إدخال الأنظمة الهندية في مختلف مناحي الحياة، فأصبحت العملة الهندية محل العملة العثمانية والقوانين التجارية والتنظيمية الهندية صارت نافذة في الولايات إلى غير ذلك من التشريعات والأنظمة المختلفة، وظلت الحال على ما هي عليه إلى أن تم صرف النظر عن فكرة فصل جنوب العراق ووسطه عن شماله واستقر الرأي بأن يكون كيانا سياسيا موحدا.

بحلول شهر أيلول من عام 1918م شكلت في بغداد حكومة موحدة لإدارة ولايتي بغداد والبصرة ثم الموصل في أيلول من عام 1919م، تألفت من دائرة الحاكم المدني العام وعدد من المديريات الملحقة، كما جرى سن قانون إدارة بريطانية، فالإدارة المفروضة على العراق كانت بالكامل نتاج رجال معارين من وزارة الهند وصممت على غرار الهيكلية الامبراطورية البريطانية في الهند، وقد اعتمدت فلسفة هذه المجموعة على أفكار القرن التاسع عشر المعروفة (بعبء الرجل الأبيض)، وهو نزوع للحكم المباشر، وانعدام الثقة بقدرة العرب المحليين على الحكم الذاتي، حال هذا الموقف دون تعيين العرب المحليين بمواقع المسؤولية، وأثناء ذلك، واصل البريطانيون تفكيك الإدارة العثمانية بأسرع وقت ممكن، وجرى تقسيم بلاد وادي الرافدين إلى مقاطعات سياسية، تخضع كل منها إلى إدارة ضابط بريطاني، وسيطر البريطانيون على إدارة تمثل أعلى المستويات، وقد حل قانون مدني وجنائي يعتمد على القوانين الإنكلو هندية محل القوانين التركية القديمة؛ وأصبحت الربية الهندية وسيلة التبادل المالي، وانضم الهنود على نحو متزايد إلى قوات الجيش والشرطة، وتم لاحقا التخلي عن المزيد من هذه الهيكلية الإنكلو هندية، ولكن في مجال واحد - السياسة العشائرية - ظل إرث وزارة الهند مصونا، وعلى العكس تماما من السياسة العشائرية التركية، التي كانت تهدف إلى إضعاف الزعماء العشائريين، وجعل العشائر تخضع للحكومة المركزية، حاول البريطانيون إعادة التماسك العشائري، لجعل شيوخ العشائر مسؤولين عن القانون والنظام وجمع الريع المالي في مقاطعاتهم، وربطها بالإدارة البريطانية الحديثة التكوين من خلال الهبات والامتيازات، تم التأكيد على حيابة شيوخ العشائر للأراضي العشائرية،

المحاضرة الرابعة لمادة العراق المعاصر (المرحلة الثانية)

للعام الدراسي 2023-2024

وقد سن قانون خاص للخلافات العشائرية، يعتمد على القانون العرفي، لحل النزاعات التي تحدث بينهم، وكانوا يمنحون، عند الضرورة، السلاح أما التزاماتهم تجاه الحكومة المركزية، فقد كان يتم تلطيفها بفوائد نقدية كبيرة، ولم تطبق هذه السياسة في المناطق العربية فحسب، بل وفي الأقاليم الكردية أيضاً، كانت هذه السياسة كفؤة ومقتصدة، إذ قللت من الحاجة إلى إيجاد كادر بريطاني يتقاضى رواتب عالية في الريف، ولكنها عززت في نهاية الأمر من قبضة الشيوخ على رجال عشائرتهم وأراضيهم، سيما على امتداد دجلة، وأوجدت عنصراً سياسياً جديداً وفعالاً في البلاد، ومع أنها لم تكن من ابتكار البريطانيين بالكامل، فقد كانت بالتأكيد أحد أهم تأثيرات المدرسة الهندية.

ولم يطل الوقت قبل أن تولد المدرسة الهندية معارضة في بريطانيا والعراق، ففي آذار 1917 أصدرت الحكومة البريطانية مذكرة أوضحت فيها أن حكومة عربية من أهل البلاد تخضع للتوجيه البريطاني ستحل محل الإدارة المباشرة، واستجابة إلى المذكرة، تم استبدال القانون الأنكلو هندي وذلك بالعودة إلى القوانين والمحاكم التركية، ومع ذلك، لم يشمل التغيير إلا جوانب قليلة، فقد تم تكوين تقسيمات ومناطق جديدة أدارها ضباط بريطانيون، وتزايد عدد المسؤولين البريطانيين على حساب العرب، ففي 1917 كان ثمة (59) ضابطاً بريطانياً في الإدارة المدنية، وبحلول 1920 بلغ العدد (1022) ضابطاً، وشغل المسؤولون العرب أقل من (4%) من المستويات العليا، وبحلول 1920، تمكن البيروقراطيون البريطانيون في بغداد من إحباط تعليمات السياسة الجديدة، وبذا شددوا قبضتهم على البلاد، كانت وزارة الخارجية مترددة بانتظار قرارات مؤتمر السلام في أوربا، ولم تصل إلى قرار واضح بشأن حكومة العراق المستقبلية، وعندما حان الوقت، لم يتخذ البريطانيون القرار بل اتخذه العراقيون، ثورة 1920.

لقد عمدت الإدارة البريطانية إلى إجراء استفتاء شعبي لتزييف إرادة الشعب العراقي، وتأليف الحكومة التي تريدها بريطانيا باسمه، فأجرت الإدارة البريطانية في العراق استفتاء شعبي في 30 تشرين الثاني 1918م يبين فيه الشعب رأيه في الأمور الآتية:

1- هل يفضلون دولة عربية واحدة تقوم بإرشادها بريطانيا وتمتد من حدود ولاية الموصل الشمالية إلى الخليج العربي؟

2- وفي هذه الحالة هل يرون أن عاهلاً عربياً يجب أن ينصب في رأس هذه الدولة؟

المحاضرة الرابعة لمادة العراق المعاصر (المرحلة الثانية)

للعام الدراسي 2023-2024

3- وإذا كان الأمر كذلك، من الذي يفضلون تنصيبه للدولة؟

بحث الحكام السياسيين تلك النقاط بصورة سرية مع الشخصيات البارزة، المتعاونين مع بريطانيا وبخاصة الشيوخ البارزين، للحصول على آراء تطابق آراء الإدارة البريطانية، فتم حصر ما سمي الاستفتاء بالمناطق العشائرية والمدن بالشيوخ والملاكين والوجهاء المتعاونين مع السلطات المحتلة لتكون النتيجة المطالبة باستمرار بقاء الحكم البريطاني، كما خطط البريطانيون، أما في بغداد والمراكز الدينية فقد وجدت السلطات البريطانية صعوبة في الحصول على النتائج المرضية، وصدرت فتاوى بأن كل شخص يرغب في حكومة غير عربية مسلمة يعد خارجاً عن الدين.

كانت نتيجة الاستفتاء كما رفعتها سلطة الاحتلال إلى الحكومة البريطانية، بأن هناك رأياً عاماً شاملاً تقريباً يرى أن الموصل يجب أن تبقى ضمن الدولة الجديدة، وهناك رغبة في استمرار الحكم البريطاني دون إجراء تبدلات جوهرية فيه كما أن هناك من يطالب بتعيين السير برسي كوكس على رأس الدولة الجديدة ولم يرفع الآراء التي طالبت بتأسيس حكومة عربية يحكمها أحد أنجال الشريف حسين.

الانتداب البريطاني على العراق (1920-1932)

لما اندلع لهيب الحرب العالمية الأولى عام 1914، باشر الحلفاء بتسوية توجيه العطف من العالم على قضيتهم، أنهم إنما يحاربون لرفع الظلم، وتحرير الشعوب المضطهدة من نير السيطرة التي فرضها أعداؤهم عليها، فأكثروا من الوعود للشعوب المظلومة ليستروا بها الشبهات التي كانت تحوم حول نياتهم، حتى استطاعوا أن يجندوا أبناء البلاد التي تخضع لنفوذهم لقاتلوا في صفوفهم. ولم يكن مأمولاً أن يحارب أبناء المستعمرات وأبناء الأمم المتحالفة مع الحلفاء، في سبيل إبقاء الرق الاجتماعي، وإنما يحاربوا في صفوفهم أملاً في الحرية والظفر بالاستقلال.

لا ينكر أن من أهم أسباب الحروب بين الدول الكبرى، التنازع الاستعماري. فقد أتاح الزمن لبعض الدول أن تستولي على أراضٍ شاسعة، وأن تستغل مواردها، وتستخدم شعوبها كما تشاء وتريد، فأصبح منها غني وفقير، وحال الاستعمار دون التبادل الاقتصادي بين شعوب البلاد المستعمرة والدول الأخرى، إذ اعتبرت الدول القوية المستعمرة، البلاد الخاضعة لاستعمارها، أجزاء تابعة لها تستعملها كما تشاء، وتحرم التبادل الاقتصادي بينها وبين من تشاء، وتتحكم في شعوب أبناء المستعمرات،

المحاضرة الرابعة لمادة العراق المعاصر (المرحلة الثانية)

للعام الدراسي 2023-2024

وتستغلهم، محتجة بقاعدة "الفتح" فكان من المنتظر أن تزال، استناداً إلى تصريحات الحلفاء أهم أسباب الحروب بزوال "قاعدة حق الفتح" ورعاية المستعمرات بمنح شعوبها "حق تقرير المصير". وكان من المتوقع أن لا يضاف إلى الأسباب المؤدية إلى الحروب بين الدول القوية أسباب أخرى، وألا تضاف مستعمرات جديدة إلى مستعمرات الدول المنتصرة.

وكان ولسن رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، قد دفع بلاده إلى تأييد الحلفاء إيماناً بعدالة قضيتهم. وكان يعتقد أن الحلفاء مخلصون بوعودهم، حريصون على تجنب بواغث الحرب وإلحاق بلاد جديدة واضطهاد شعوبها، ومنع حق تقريرهم، فأصدر تصريحاته الأربعة عشر في 4 تموز 1918 التي أصبحت فيما بعد نوع جديد للسيطرة تحت عنوان "الانتداب" وشكل جديد من أشكال الاستغلال الاستعماري.

تعاون العرب مع الحلفاء

لما أضع العرب استقلالهم، قبل عدة قرون، كان بعض بلادهم من نصيب الامبراطورية العثمانية. أما البعض الآخر فاستولت عليه الدول الأوروبية، وعاملته معاملة مستعمرات، إلا أن هذا لم يقض على فكرة الاستقلال الراسخة في أذهان العرب. فلما أعلنت الحرب العالمية الأولى فطن العرب المندمجون في الامبراطورية العثمانية لمستقبلهم المظلم، من جراء سلوك "حزب الاتحاد والترقي" فكانوا من جملة الأمم التي تعاونت مع الحلفاء على أمل نيل استقلالهم وتحقيق الوحدة، فحاربوا الدولة العثمانية المسلمة في صفوفهم، لا لاستبدال العثمانيين بسيطرة دولة أجنبية، بل اطمئناناً إلى صدق وعود الحلفاء، ودعوتهم للتحرر.

كان لورد كاتشنر القنصل البريطاني العام في مصر، قد اتصل بالأمير عبدالله ثاني أنجال الشريف حسين بن علي شريف مكة، أثناء مروره بالقاهرة قبل الحرب العالمية الأولى، وعرض عليه هذه الكلمات: "إذا حدث أي حادث تحتاج فيه إلى أي خدمة أقدمها، فإني مستعد" فلما شب أوار الحرب في منتصف عام 1914، أوفد الشريف حسين نجله عبدالله إلى القاهرة ليفتح القنصل البريطاني باستعداده للتعاون مع الحلفاء في سبيل تحرير العرب، وتحقيق أمانهم، فلم يلق الالتفات المأمول فعاد إليه أبيه. فلما كانت سنة 1915، تبدل الوضع الحربي، فشعرت بريطانيا بحاجة ماسة لضم العرب إلى صفوف الحلفاء، والتحالف معهم، فاستأنفت المفاوضات إذ أبرقت دائرة الاستخبارات البريطانية

المحاضرة الرابعة لمادة العراق المعاصر (المرحلة الثانية)

للعام الدراسي 2023-2024

في القاهرة إلى حكومة لندن بأن الأمر قد دبر مع شريف مكة، فأصدرت هذه أوامرها إلى معتمدها في مصر، أن يعجل في إدخال هذا الأمر دوه التنفيذ. ثم دارت مراسلات بين الشريف حسين والسير هنري مكماهون، خليفة لودرد كتشنر في منصبه، الأولى في تموز 1915 وفيها "وعد الشريف بتقديم المساعدة الحربية للحكومة البريطانية في مقابل وعد باستقلال بلاد العرب، بحيث تضم منطقتي مرسين وأدنا شمالاً، وتمتد من خط العرض رقم 37 إلى الحدود الإيرانية. أما الحد الشرقي فيبدأ بالحدود الإيرانية، وينتهي في خليج البصرة. ويكون المحيط الهندي، مع استثناء عدن، حدها الجنوبي. ويكون البحر الأحمر والمتوسط لغاية مرسين الحد الغربي للمملكة. فما كادت فرنسا تحيط علماً بهذه المراسلات، حتى قلقت واضطربت لمصيرها في الشرق، فعادت الحكومتان البريطانية والفرنسية إلى الأساليب الاستعمارية القديمة، فعقدتا اتفاقية سرية في 15 - 17 ميس 1916 "لتنظيم الأوضاع المقبلة في شرق البحر المتوسط بين الإنجليز والفرنسيين، وتثبيت السياسة البريطانية المقبلة في الأمور التي قد نشأ من تفسير مراسلات الحسين - مكماهون، وما يتعارض منها في هذه الاتفاقية". وقد وقع هذه الاتفاقية كل من سير سايكس باسم الحكومة البريطانية، ومسيو جورج بيكو، باسم الحكومة الفرنسية، فسميت "اتفاقية سايكس بيكو" ونصت على تجزئة البلاد العربية التي تفانى الشريف حسين في سبيل وحدتها إلى المناطق الخمس التالية:

- 1- المنطقة الحمراء: تكون تحت إدارة الحكومة البريطانية المباشرة، وتشمل ولايتي البصرة وبغداد من العراق، وثرغري حيفا وعكا من سوريا الجنوبية.
- 2- المنطقة الزرقاء: تكون تحت إدارة الحكومة الفرنسية المباشرة، وتشمل كليكية وجزءاً من الأناضول وقطعة من سوريا الغربية.
- 3- منطقة "A" تكون جزءاً من دولة عربية تتشكل تحت الحماية الفرنسية، وتشمل ولايات دمشق والشام وحلب والموصل، فيكون لفرنسا حق الأفضلية في المشروعات والقروض المحلية، وفي تقديم المستشارين والموظفين الأجانب لها.
- 4- منطقة "B" تكون جزءاً من دولة عربية تشكل تحت الحماية البريطانية، وتشمل الأراضي الواقعة بين العراق وفلسطين المسماة "شرق الأردن" فيكون لبريطانيا حق الأفضلية في المشروعات والقروض المحلية، وفي تقديم المستشارين والموظفين الأجانب لها.

المحاضرة الرابعة لمادة العراق المعاصر (المرحلة الثانية)

للعام الدراسي 2023-2024

5- المنطقة السمراء: تكون تحت إدارة دولية وتشمل القسم الجنوبي من سورية: أي فلسطين. على أن تستشار روسيا في نوع هذه الإدارة، ويتفق مع باقي الحلفاء والشريف حسين.

أي "إن بريطانيا كانت تفاوض أمير مكة الشريف حسين حول استقلال البلاد العربية، في نفس الوقت الذي كانت تفاوض فرنسا حول تقسيم تلك البلاد". وعلى أي حال فقد كانت لبريطانيا مصالح في ولاية الموصل وفي فلسطين لا تقل عن مصالحها في المنطقتين الأولى والرابعة المذكورتين. ففي الأولى مظان النفط الغزير الذي بذل السفير البريطاني حينما كان في الاستانة، أقصى جهوده لحمل حكومة السلطان على منح الإذن بالتحري عنه إلى "شركة النفط التركية" وذلك في 28 حزيران 1914، وهي شركة أكثر أسهمها للإنجليز، وفي الثانية حصون منيعة لموقف بريطانيا في مصر، لا يمكنها أن تغض الطرف عنها، ولكنها تظاهرت بعدم الاكتراث بهذه المصالح، لئلا تثير مخاوف الروس فينصبوها العداء جهرا، فلما حاول المسيو كلمانسو رئيس وزراء فرنسا أن يقنع السير لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا في كانون الأول 1918 بالاعتراف باتفاقية سايكس بيكو مجددا، طالب الوزير البريطاني بضرورة تعديل هذه الاتفاقية على أساس الاعتراف بالمصالح البريطانية في الموصل فلم ير الوزير الفرنسي مناصا من تحقيق هذا الطلب وهكذا أمنت بريطانيا شر الغوائل الروسية، وانتزعت ولاية الموصل من فرنسا في 15 أيلول 1919 لقاء المطالب الآتية:

أ. أن تحصل فرنسا على بعض الأسهم في نفط الموصل، بتعديل اتفاقية 17 أيار 1916.

ب. أن تؤيد بريطانيا فرنسا تأييدا مطلقا عند الاعتراضات الأمريكية.

ج. إذا قرر نظام الانتداب، أن تكون دمشق وحلب والاسكندرونة وبيروت تحت انتداب واحد هو الانتداب الفرنسي.

ثم ادعت بريطانيا أنها تريد أن تكافئ اليهود، الذين استخدموا نفوذهم السياسي والاقتصادي لحمل أمريكا على دخول الحرب إلى جانب الحلفاء، وكان وزير خارجيتها لورد بلفور، وجه رسالة إلى زعيم الصهيونية العالمية لورد روتشيلد في 2 تشرين الثاني 1917 قال فيها:

"إن حكومة صاحب الجلالة البريطانية تنظر بعين العطف والاستحسان إلى إنشاء وطن قومي بفلسطين للشعب اليهودي، وإنها ستبذل خير مساعيها لإدراك هذا الغرض. على أن يكون من الجلي

المحاضرة الرابعة لمادة العراق المعاصر (المرحلة الثانية)

للعام الدراسي 2023-2024

الذي لا لبس فيه، إنه لن يتخذ أي عمل قد يضر بالحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية المقيمة بفلسطين، أو بوضع اليهود السياسي وحقوقهم التي يتمتعون بها في أي بلد آخر".

فحملت الصهاينة على معارضة وضع فلسطين تحت إدارة دولية، أو جعل الهيمنة الأخيرة عليها لغير الإنجليز، ففازت بها كما فازت بولاية الموصل من قبل. وقد ظهر بعدئذ أن جورج كلمانسو رئيس وزراء فرنسا الذي تنازل عن ولاية الموصل لويد جورج رئيس وزراء بريطانيا، كان يجهل درجة استيعاب فلسطين لليهود، والخطر الذي سيعيب المصالح البريطانية في المستقبل غير المنظور إذا نفذ هذا الوعد المناقض لاتفاقها السابق مع شريف مكة المكرمة.